

ملاحح المجاملة و الخداع في قصيدة التكسب و الانتفاع في العصر العباسي الثاني ٣٣٤ - ٦٥٦ هـ

أ . د عاصم عبد دواح الدليمي
جامعة بغداد / كلية التربية للبنات

المخلص:

يصور البحث نمطاً من شعر المديح قاله جمعٌ من شعراء الحقبه العباسية المتأخرة بحق افرادٍ متنفيذين حين ذلك، وغالباً ما يلحظ في ذلك القصيد النهم المادي للشاعر ، اذ يُعلي من مقام ممدوحه ويُسبغُ عليه اوصافاً يذهبُ فيها الى حد المبالغة الممقوتة التي تُخرجه أحياناً من المعقول ، وهو ما استقبلهُ اولئك الممدوحين بالرضى والترحاب.

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد الاستعانة بالله هيأت الدواة وشحذت القلم بالمبراة وأزمنت الكتابة في غرض من أغراض شعرنا العربي كان شائعاً في الحقبه العباسية المتأخرة ذلك هو غرض المدح التكسبي ويبدو ان اسمه دليل مبتغاه ونظراً لسعة الموضوع وغزارة مادته فقد ارتأيت ان اقف عليه في العصر العباسي الثاني ، وذلك لان الحقبه المتأخرة من هذا العصر قد هيأت امام الشاعر المكتسب اسواقاً عديدة لعرض بضاعته ، فمقر الدولة العباسية في العراق ومقر الدولة الفاطمية في مصر واخيراً الدولة الأيوبية في الشام ، وكلها كانت فاتحة يديها لهذا النوع من الشعر مرحبة به في بلاطها .

كذلك وجدت انه من المناسب ان اتحدث عن الموضوع اجمالياً في تلك البقاع دون تجزئة على اعتبار ان الدينار هو المبتغى مهما اختلفت تسمياته في فناء الامة الاسلامية آنذاك وأن الشعر التكسبي ليس لناظمه قصد الأ ذلك الدينار ، لذا ساقف في بداية الموضوع بصورة وجيزة على غرض المدح عموماً في الشعر العربي ، مبيناً بدايات التكسب زمن الجاهلية و صدر الاسلام والعصر الاموي ، وسأتناول بصورة اوسع هذا الغرض في العصر العباسي واغلب الاحداث التي سأذكرها ستكون في مرحلة العصر العباسي الثاني ٣٣٤ - ٦٥٦ هجري متخذاً نماذج ذلك من بلاط العباسيين والفاطميين والايوبيين كذلك سأقف على نوع من التكسب وضمن الحقبه نفسها اعتبرته

نوعاً من التكسب البائس أفرزته الحياة الاجتماعية والشظف الاقتصادي الذي كان يعيش عليه المجتمع آنذاك .

وبداية أمل من الله جلّت قدرته وتعالى شأنه ان اكون ولو قليلا محط استحسان القارئ الكريم لهذا البحث المتواضع.

يحتل شعر المديح الصدارة بين الاغراض الشعرية وذلك لسعته وكثرته في دواوين الشعر العربي ، فلقد كان في الشعر العربي القديم يستهدف انبل الغايات وأشرفها ، فكان الشاعر منهم تعجبه الشمائل الشخصية والفضائل الاجتماعية فتتفعل نفسه فيها فيصوغها قصيدة تكون وصفا جميلا لتلك الفضائل وتعبيرا أدبيا عما احس به تجاه الذين اتصفوا بها افرادا او جماعات ، بل ربما يرى ذلك الشاعر ان المديح ها هنا هو نوع من الذوق الأخلاقي الملقى على عاتقه لتصوير القيم النبيلة.

وحسبنا دليلا لذلك في حقبة ما قبل الإسلام شعر زهير بن ابي سلمى في هرم بن سنان والحارث بن عوف .

ولقد اثى قدامة بن جعفر على قول الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنده ترجيحه شعر زهير بن ابي سلمى في المدح بقوله (انه لم يمدح الا بما يكون للرجال)^(١) وأكد على اصابة الشاعر المادح حين يدعو الى الخصال النبيلة ويقول (لما كانت فضائل الناس من حيث انهم ناس انما هي العقل والشجاعة والعدل والعفة كان القاصد لمدح الرجال بهذه الاربعة الخصال مصيبا والمادح بغيرها مخطئا)^(٢)

لقد استمر هذا الغرض في عصر صدر الإسلام خارجا عن نطاق المديح الشخصي او التكميلي الى المديح الذي يجعل من الممدوح إطارا لقضية عامة وصفاته توكيدا لمبادئ يدعو اليها الممدوح ويحاول الشاعر في تشبيتها وإشهارها ، ويدخل ضمن هذا القول كل الشعر الذي قيل في النبي محمد - ص وصحابته - رض ... ففكرة المديح كانت جزءا لا يتجزأ من الدعوة الإسلامية التي جاء بها الرسول - ص ، وشعر حسان بن ثابت وفيرٌ بذلك^(٣)

أما في العصر الأموي فكان هناك شعراء يقصدون من مدحهم الحصول على جوائز الممدوح وهناك آخرون حافظوا على القيم ولم يتكسبوا لكن المحافظة على القيم الانفة قد اخذت مسارا آخر حاول شعراء الأحزاب السياسية ترسيخها عند الناس بأنها في حزبهم وذلك من اجل الوصول الى الحكم ، وقد ذهب قسم منهم الى الابدع من ذلك وأعابوا على الشعراء التكسب بالشعر ، فهذا الطرماح بن الحكيم ت ١٠٥ هـ شاعر الخوارج يعيب على الفرزدق ت ١١٤ هـ تكسبه بالشعر ويقول له^(١):

ان الله ما بأيدي العباد

أيها المادح العباد ليعطى

وارج فضل المقسم العواد

فأسأل الله ما طلبت اليهم

فرفض فكرة التكسب بالمال لأنه إذلال لنفس صاحبه .

(وتوكيد كون الرزق من الله تعالى فكرة ما دخلت فن المديح إلا بسبب المعتقد الإسلامي وإذا لم يكتب لهذه الدعوة الشيوخ فإن وجودها بحد ذاته يمثل نقطة تحول في نظرة الشاعر او المجتمع الى المدح التكسبي)^(٥)

وفي العصر العباسي كثر شعر المديح بنوعين مختلفين متناقضين الأول كاذب منافق لا حياة فيه لأنك تشم من خلاله المبتغى المادي حتى انه يتقاسم انتباهك مع مدح الخليفة او الوزير او البطل .

أما النوع الثاني من شعر المديح فنلمس فيه صدق العاطفة وحرارتها ويبدو ذلك واضحا حين نلاحظ تأكيد الشاعر على الصفات والخصال الحميدة بعيدا في تناوله عن المبتغى المادي فإعجاب الشاعر وحب له هو الاساس الاوحد الذي يقف وراء نظم تلك القصيدة^(٦)

وقد اكد بعض النقاد على تجنب الغلو والمبالغة ضمن تلك الصفات لان الافراط في وصفها تجعلها مذمومة^(٧) وقسموا الممدوحين الى طبقات ذكروا خلالها الصفات الواجب ذكرها عند مدحهم^(٨) ومجارة لعنوان البحث سيكون التركيز على النوع الاول من شعر المديح او ما يسمى بالمدح التكسبي وسأركز على حقبة الحروب الصليبية في العصر العباسي الثاني وذلك لسعة الموضوع ، لكن ذلك لا يمنع من الاستئناس بما قبل تلك الحقبة حين اجد ذلك مناسبا.

لقد كان التكبسب بالشعر مستهجنًا زمن الجاهلية لكن ذلك لم يمنع من ظهور نماذج له كالنابغة الذبياني والأعشى ، ولا يهمننا في هذا المجال أي الاثنين اسبق الى ذلك وبضرورة استكمال الرؤيا يتحتم علينا ايضا ان نبين اوائل الممدوحين المجزين ولعلمهم ملوك المناذرة والغساسنة وذلك بسبب التنافر والتناحر الموجود آنذاك بين المملكتين .^(٩) وكان النابغة الذبياني بطل الساحة آنذاك .

وحيث جاء الاسلام (حرم الحصول على المال من غير الطرق المشروعة ووجب على المسلم ان يكتسب قوته من عمل يده)^(١٠) فلم يكن هناك سوق للشعر التكبسي .

اما في العصر الاموي، فقد اغدق الخلفاء على الشعر بغير حساب اذ اعتمدوا عليهم في تأييدهم دون الاحزاب الاخرى^(١١) وحين نأتى الى العصر العباسي الثاني موضوع بحثنا نجد ان الشعراء بالغوا في وصف ممدوحهم حينما يكونون من متنفذي الدولة خلفاء أو وزراء أو سلاطين فأعطوهم صفات ربما لم تكن مهياة لبني البشر مهما بلغوا من مقام . ويصرح الشاعر بها دون تردد او وجل ، فهذا الشاعر ابن النبيه المصري (ت ٦١٩ هـ) يقول في مدح الخليفة العباسي الناصر لدين الله^(١٢):

بغداد مكتنا وأحمد أحمدُ
حجّوا الى تلك المساجد وأسجدوا

إلى أن يقول :

لولا التقيّة كنت أول معشر
غالوا فقال انت ربّ تُعبد

فمن اجل المكسب النثر تجاوز على الدين كما أرى وكثير مثل ذلك في ديوانه ففي (نظمه مبالغات تفضي الى الكفر)^(١٣)

وقد ذهب سبط بن التعاويذي ت ٥٨٤ هـ المذهب نفسه عند مدحه الناصر لدين الله ٥٧٦ هـ فقال^(١٤):

مدحك لا يستطيعه البشر
أغنتك عند مدح مادحيك
أتى وقد أنزلت به السور
السبع المثاني ياسين والزمير
فاحكم على الدهر قادرا فيما
تشاء يجري القضاء والقدر

ورب سائل يسأل ألا يدرك الخلفاء ذلك التجاوز المعنوي والمغالاة غير المعقولة ؟ والجواب على ما اظن : انهم يدركون ذلك لكنهم يتجاهلون ، فالخليفة الرشيد مثلا كان لا يرى بأسا ان يُمدح كما كانت تمدح به الأنبياء (١٥)

ان هذه المغالاة تغري الشاعر في الاستمرار على هذا المنوال لأنه يجد سوقا رائجة لبضاعته التي تدرّ عليه ربما وفيرا علما ان (الغلو لا يعد من المحاسن الا اذا اقترن به ما يقترنه من الحق) (١٦) فأين الحق من ادعاء ممتع عقلا وعادة (ومراتبه تتفاوت الى أن تؤول بقائلها الى الكفر) (١٧) وبمثل هذا النوع من المدح الذي هُيئ للخلفاء كان للوزراء والولاة ما يماثله والشواهد على ذلك كثيرة ، فمن الشعر الذي بلغ فيه صاحبه حد الغلو المتناهي ما قاله الأبله البغدادي (ت ٥٧٩ هـ) في مدح عون الدين بن هبيرة وزير المقتفي لأمر الله حين هُناه بعيد الفطر المبارك سنة ٥٥٥ هـ وفيها يقول (١٨) :

سحاب جودك فينا هامر هامر وطود حلمك سامي المرتقى حامي

قد كنت اشرك في مدحي سواك ومد وجدت فيك مدحي صحّ اسلامي

فهو لم يكن مسلما صحيح الاسلام الا بعد مدحه الوزير !!!

وقريبا من ذلك وربما ادهى حين جعل الطغرائي ا ت ٥١٥ هـ الأعمار والأرزاق بيد السلطان محمد بن ملك شاه السلجوقي وزير المستظهر بالله في قصيدة اولها (١٩)

لجلال قدرك تخضع الاقدار ويؤمن جدك يحكم المقدار

تعطي من تشاء وتمنع من تشاء بإذنه وبكفك الارزاق والاعمار

ولم يتصد لمثل هذا الغلو غير المعقول من الخلفاء او السلاطين في الدولة العباسية على حد علمي الا السلطان نظام الملك (ت ٤٨٥ هـ) حين زجر الشاعر ابن الهبارية (ت ٥٠٤ هـ) يوم قال له ضمن قصيدة مدح (٢٠):

بعزة امرك دار الفلك حنانيك فالخلق والامر لك

فقال السلطان " كذبت ، ذاك هو الله عز وجل " (٢١)

وبمثل ما كان الغلو في الشعر التكميبي وفيرا زمن الدولة العباسية كذلك الحال وربما ادهى ضمن الحقبة نفسها عند الفاطميين في مصر خلفاء كانوا ام سلاطين ، فحين صعد الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله المنبر يوم عيد ، انبرى له الشريف ابن انس الدولة قائلا : (٢٢)

خشوعاً فإن الله هذا مقامه
وهمساً فهذا وجهه وكلامه
وهذا الذي في كل وقت بروزه
تحياته من ربنا وسلامه
كذلك نظرة متفحصة في ديوان الحبيب بيص (ت ٥٧٤ هـ) عند مدحه للمستضيء بأمر الله
الفاطمي نراه يعطيه صفة اعجازية من صفات الخالق فيقول له : (٢٣)

يا امام الهدى علوت عن الجو
د بمال من فضة ونضار
فوهبت الاعمار والامن والبل
دان في ساعة مضت من نهار
انما انت معجز مستقل
خارق للعقول والافكار

فالأعمار لا يهبها الا الله جلت قدرته ، فعلام هذا الغلو ؟
وكانت للوزارة الفاطمية حصتها من المدح التكميلي الذي وصل حد المبالغة فمن يقرأ قصيدة
الشاعر ظافر الحداد (٥٢٩ هـ) وهو يمدح الملك الافضل وزير المستعلي والأمر الفاطميين
يدرك ذلك وخاصة حين قال (٢٤) :-

يا مالك الدنيا الذي من عدله
في كل ارض عسكر جرّار
ويقسّم النعم التي لنوالها
في كل موضع شعرة بتّار
ان كان هذا الخلق اصل وجوده
طين فأصالك جوهر ونضار

فأبى غلو هذا النمط الذي يُخرج الممدوح عن بني البشر في خلقهم الطبيعي من الطين ترفعها
ليجعل طينه خلقه من معدن الفضة ، فإله سبحانه وتعالى خلق ابن ادم من طين فعلام هذا
الانكار .

لقد احب الممدوحون ذلك النوع من الشعر ووصل الحد بهم الى موازنة قصيدة الشاعر المادح
بقصائده التي قالها في مدح غيرهم ، فإن ظهر لهم ان ما قيل بحقهم اقل من غيرهم اقاموا الحد
على الشاعر كما فعل المأمون مع الشاعر ابي الحسن علي بن جبلة العكوك (ت ٢١٣ هـ) حين
قطع لسانه يوم ظن انّ ما قاله في ابي دلف خير من قوله^(٢٥) ومقابل ذلك فلقد ذكر
البعض من الشعراء المتكسبين دافعهم المادي من وراء مدحهم صراحة ، فلنسمع ماذا يقول صرّدر
(ت ٤٦٥ هـ) لممدوحه :

ولست ارحص اقوالي لسائمتها
الا عليك و للأشعار اسعار

وكذلك قول الارجاني (ت ٥٤٤ هـ) في مدح الوزير شرف الدين انو شروان بن خالد (ت ٥٧٠ هـ) (٢٦):

عندي من الشكر إذ عندك ما شئت من النائل

اما عمارة اليميني (٥٧٠ هـ) فيذكر ان حبه للفاطميين هو بسبب الكسب منهم وذلك بقوله : (٢٧)

قوم عرفت بهم كسب الالوف ومن تمامها انها جاءت ولم أسل

اجل ، ان انكار الحقائق وربما التغاضي عن المعقول لم يكن دافعه الا الكسب المادي الوفير ، اذا
كما لاحظنا انفا ان اولئك الشعراء قد اصفوا على ممدوحهم صفات ارى من الأجدر ان يوصم
قائلها بالإلحاد ، لكنهم ربما يضعون أعدارا لغلوهم المتناهي ومتاجرتهم بهذه السلعة ومن ابرز تلك
الأعدار : البؤس والفقر الذي يعيشون فيه والذي تدارسوه احيانا بينهم كما ظهر عند الشاعر ابن
الخياط الدمشقي (ت ٥١٧ هـ) حين كتب الى زميله الشاعر ابن حيوس (ت ٤٧٣ هـ) يستسمحه
شيئا من بزه بهذين البيتين : (٢٨)

لم يبق عندي ما يباع بحبة وكفاك علما منظري عن مخبري

الا بقية ماء وجه صنتها عن ان تباع واين المشتري

فالشاعر مستعد لبيع ماء وجهه لو توافر المشتري لبضاعته ، فأين الصدق المتوقع من عاطفة
مثل هذه ؟ طالما ان المسألة هي عرض وطلب . كذلك يبدو ان اهانة النفس مسألة طبيعية عند
الشعراء اللاهثين وراء المال ، فلقد صرح احدهم بذلك وهو دعبل الخزاعي (ت ٢٤٧ هـ) بقوله في
حق ممدوحيه (٢٨):

اهين لهم نفسي لأكرمها بهم ولا يكرم النفس الذي لا يهينها

كذلك تدارس اولئك الشعراء حالهم مع ممدوحهم ، فهذا الطغرائي (ت ٥١٥ هـ) يشكو حاله
لممدوحه اسعد بن محمد موسى وهو من اعيان الدولة السلجوقية فيقول له (٢٩) :

أذكر مجد الملك حاجتي التي تضمنها سمح السجايا كريمها

واشكو اليه سقم حالي وانما بعلياه أرجو أن يبيل سقيمها

اما سبط بن التعاويذي (ت ٥٨٤ هـ) فقد شرح بؤسه مستترفا عضو الدين بن رئيس الوزراء
شاكيا قلة معيشته قائلا (٣٠) : -

دعوتك مستجيرا من زمني
بجود يديك فاصغ الي دعائي
انتساني وانت كفيل رزقي
وعندك ان مرضت شفاء دائي

فشظف العيش وبؤس الزمان معاناة تكاد لا تخفى حتى عند الشعراء المتعففين كما الحال عند
الشاعر البطل أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ) حين يقول (٣١) :

أصبحت في زمن يشيب لجوره
فود الجنين ويهرم المولود
وإذا شكونا اليوم أتى غد
قلنا إلا ليت امس يعود

وربما من جراء ذلك أثر بعض الشعراء الموت على حياة مثل التي كانوا يعيشونها
فبالأمس كشف ابن الخياط (ت ٥١٧ هـ) حاله البائس الى زميلة ابن حيّوس (ت ٤٧٣ هـ) لكنه
الان اصبح لا يريد الحال كلها ويريد القبر سترًا للخلة التي يعيشها فيقول (٣٢) :

يا ليت ان سقمي ان يدي شلت ولم
يرني خلق امد اليه بالسؤال يدا
وليت سقمي الذي في الحال من عدمي
اجله الدهر مني الروح والجسدا
بل لبيتني لم اكن خلقا واذا قسم ال
حياة قاسمها لي قصر الامدا
فالموت اروح من عيش منيت به
ولم يعش من تقضى عيشه نكدا

مما تقدم لاحظنا كيف كانت سوق التكبس رائجة بسلة الشعر زمن الدولة العباسية والفاطمية
كذلك وقفنا على التفنن المبالغ فيه الذي كان سائدا ضمنه والذي وصل الى حد المغالاة غير
المقبولة وعرّجنا قدر المستطاع على اهم الاسباب التي رأيناها سببا لذلك الشعر وغلوه كما نظن -
وارى من المناسب للمقام ولو بصورة موجزة التعرّيج على النوع ذاته في بلاط الايوبيين وهل تعامل
الشعراء بدرجة الغلو نفسها ام بمكانة ادنى - وسأسلط الاضواء اكثر على بلاط البطل صلاح
الدين الايوبي كونه اكثر الايوبيين شهرة حسب ظني. لقد تغنى الشعراء ابان تلك الحقبة بحب
الايوبيين والاستمالة اليهم ويعد التكبس من بين اسباب كثيرة جديدة لامجال لذكرها دفعت اولئك
الشعراء للتغني بمآثر الايوبيين في مقارعة الصليبيين - فقد عُرف عن البطل صلاح الدين الايوبي
انه كان يجزل العطاء للشعراء - ومن بين الادلة على ذلك مخاطبة سبط بن التعاويذي له (٣٣) :

واقمت سوقا للمدائح مريحا
فاليه اعلاق الفضائل تُحلب

لقد كانت قصيدة التكبس في مدح البطل تحت ايضا على استنهاض الهمم - ولم يتوان المادح من
التصريح عن هدفه الاساس - فعندما طلب الخليفة الفاطمي العاضد من البطل نور الدين محمود

اسعافه لتخليصه من الافرنج سنة (٥٦٢ هـ) ارسل اليه البطل صلاح الدين الايوبي - وكان للشاعر عرقة الكلبى ت (٥٦٧ هـ) توثيقا لذلك لم يجانب فيه هدفه التكميبي فيقول^(٣٤):

وهل اخشى من الانواء بخلا
اذا ما يوسف بالمال جادا
فتى للدين لم يبرح صلاحا
وللأعداء لم يبرح فسادا
لئن اعطاه نور الدين حصنا
فان الله يعطيه البلادا
الى كم ذا التواني في دمشق
وقد جاءتكم مصر تهادى

وحين سار صلاح الدين الى مصر وملكها وخلصها من الصليبيين بعث اليه الشاعر نفسه قصيدة يصرح فيها بطلب المادة جهارا قائلا^(٣٥):

قل للصلاح معيني عند اعساري
يا الف مولاي اين الاف دينار

فقد كان البطل صلاح الدين قد وعده بإعطائه الف دينار ان هو ملك مصر .

وبالطريقة نفسها بالكسب يسأل الشاعر عمارة اليميني (ت ٥٧٠ هـ) شمس الدين توران شاه احد سلاطين الأيوبيين^(٣٦) :

فامنن علي بنصف الالف راتبة
فقدر ودك لا يحويه مقدار
مقسومه في شهور العام تحمل لي
اقساطها كل شهر وهي ادرار

واظن ان المجاهرة بطلب المادة يقلل من الغلو والمبالغة في صفات الممدوح غير المعقوله ويبيح المجال امام الغلو المعقول فقط ، وهذا ما رأبته في اغلب مدح الايوبيين وربما يعود سبب المعقولية تلك الى يقين الشعراء بأن حالة الحرب الدينية المفروضة على امة الاسلام تقتضي المعقولية في اوصاف الممدوحين حتى لا تتعارض مع الدين والمقدسات ، ولكن ذلك لم يجتث الغلو الاهوج نهائيا فمن يقرأ قصيدة الشاعر ابن عنين (ت ٦٣٠ هـ) في مدح الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخ شاه بن شاهنشاه بن ايوب وكان ادبيا شاعرا يدرك وجود ذلك فقد قال فيه^(٣٧) :-

شعر سمت باسمه الشعري لشركتها
فيه فقامت تباهي الشمس والقمر
لولا التقى قلت لاشي يعادله
استغفر الله الا النحل والشعرا

فأي الحاد واي ضلال سبّ به الدينار والدرهم للاهثين ورائهما ، كذلك الحالة نفسها كانت عند الحسن بن علي الجويني ت ٥٨٦ هـ في مدح القاضي الفاضل حين قال^(٣٨):

لولا انقطاع الوحي كان منزلا
في الفاضل بن علي البيساني

نشني عليه بمثل ما تنشي على

افعاله المرضية الملكان

وقد يذكر الشاعر اعطيات ممدوحيه لا لشيء وانما لزيادة عطايا الممدوح الجديد ، فبكل تأكيد على ما اظنه ان الممدوح التالي لا يرضى لنفسه ان تكون عطيته اقل من الممدوح السابق ، فهو يريد ان يكون الاعلى والاشهر بين الاقران الممدوحين ، هذا اذا اسلمنا ان الشاعر المادح قد صدق في ذكر الاعطيات السابقة ، ووجدت مثل هذا الضرب التكبسي عند عمارة اليمني في قصيدة يمدح بها البطل صلاح الدين الايوبي اسمها (شكاية المتظلم ونكاية المتألم) واولها (٣٩) : -

يا اذن الايام ان قلت فاسمعي
لنفثة مصدر وأتة موجه
الى ان يقول :

وزرت ملوك النيل ارتاد نيلهم	فأحمد مرتادي واخصب مربعي
وفزت بألف من عطية فائز	مواهبه للصنع لا للتصنع
وجاد ابن رزيك من الجاه والغنى	بما زاد عن عزمي رجالي ومطعمي
وليست ايادي شاور بدميمة	ولا عهدا عندي بعهد مصنع
فقل لصلاح الدين والعدل شأنه	من الحاكم المصغي الي فأدعي
دعوناك من قرب وبعد فهب لنا	جوابك فالباري يجيب اذا دُعي

فليس الامر صعبا على الشاعر المتكسب ان يذكر أسماء ممدوحيه الأول لكن الاصعب ان يذهب الى الابدع من ذلك ويمدح اعداء امته جهارا من اجل التكسب ومثل هذا النوع من الشعراء وان كانوا قلة على حد علمي لكن فعلتهم تلك تعد احض مكانة في الشعر التكبسي فقد مدح الشاعر ابن قلاقس ت ٥٦٧ هـ ابن ملك الافرنج المدعو (غليلم) سنة (٥٦٣ هـ) (٤٠) :

يقر لغليلم المليك ابن غليلم	سليمان في ملك داود في حكم
وما النصر الا جنده حيث ما مضى	على جبهات البرّ او صفحة اليم

فأبي مستنقع نتن قد وضع هذا الشاعر نفسه فيه ، سيما ان هذا الممدوح المشرك جاء لقتال المسلمين وتهديم الاسلام!؟؟

والان يمكنني القول ان مدحا مثل الذي تقدم سواء في البلاط العباسي او الفاطمي او امام البطل صلاح الدين الايوبي لا نشم منه الا رائحة الطمع وذلك لان اغلبه قد اضفى على الممدوحين

اوصافا مستحيلة نازعت الكفر في مكانه من اجل الوصول الى الغاية الحقيقية وهي كثرة الدنانير ، فأرى ان كلماته مرصوفة لا روح فيها لان غرضها المادي افرغها من معناها الحقيقي .
لقد خرج قسم من هذا المدح الى طلب اشياء رذيلة فهي وان كانت قليلة الذكر في دواوين شعراء هذه الحقبة لكن لا بد لنا ان نقف عليها بإيجاز وذلك استكمالا لجوانب البحث الدقيقة ومثال ذلك ما قاله الطغرائي حين طلب من مولاه علفا لحماره فقال^(٤١) :

يا سيدي شعري نفاية شعركا	فلذلك نظمي لا يقوم بنثركا
واريد أن اذكر حاجة ان تقضها	أكُ عبد مدحك ما حبيت وشركا
انا في ضيافتك العشيّة هاهنا	فاجعل حماري في ضيافة مهركا

اما ابن عنين فقد طلب فروة من صديقه قائلا^(٤٢) :

جاء الشتاء وليس عندي فروة	والقر خصم لا يردّ ويدفع
وإذا الشتاء اتى ومالي فروة	الفيت كل تميمة لا تنفع

ومتلما طلب الشاعر من الممدوح ابخس الاشياء فلا نعجب حين يكون الطلب نفسه معكوسا ، فالممدوح يطلب من الشاعر طلبا تافها حسب ظني مستغلا عوز الشاعر ويؤسه ، فقد طلب ابو عيسى بن المنجم وهو من وجهاء الصاحب بن عباد من الشعراء رثاء بردون مات له ، فانبرى لذلك جمع من الشعراء المتكسبين ويورد الثعالبي في يتيمة الدهر عشر قصائد في رثاء ذلك البردون مجموع ابياتها مئتان واثنان وثمانون بيتا سماها البرذونيات منها قول الشاعر ابي القاسم بن ابي العلاء^(٤٣) :

عزاء وان كان المصاب جليلا	وصبرا وان لم يُغن عنك فتिला
وخفّض ابا عيسى عليك ولا تقض	دموعا وان كان البكاء جميلا
بكته جلال الخز وانتحبت له	مخالي الحرير رحن منه عطولا
ففي كل اسطبل انين وزفرة	ترددُ فيه بكرة واصيلا

وقد وصلت الحال بالشاعر ابي الحسن السلامي (ت ٣٩٣ هـ) الانسان ان يطلب فداء البرذون الحيوان بنفسه اذ قال^(٤٤)

فدى لك بعد رزئك من ينام	ومن يصبو اذا سجع الحمام
ونفسي بالفداء عنيت لا من	ينام عن الحقوق ولا يلام

بقي لي ان اقف بتواضع عند اهم الملامح الفنية التي اتسمت بها قصيدة التكسب العباسية في حقبتها المتأخرة ويبدو لي ان الغالب من هذا الشعر وان فاحت منه رائحة المبعى المادي لكن صاحبه دبجه بإسلوب واضح وبسيط لا اعتوار فيه ، كذلك اتضح على اغلبه المبالغة والغلو التي قد تخرج في كثير من الأحايين عن المعقول وليس بعيدا عنا ما قاله ابن عنين حين اشاد بقريحة الملك الامجد وشاعريته يوم قال (٤٥) :-

شعر سمت باسمه الشعري لشركتها فيه فقامت تباهي الشمس والقمر
لولا التقى قلت لا شيء يعادله استغفر الله الا النمل والشعرا

فمن المعيب بل المخجل ان يوضع أي كلام مهما بلغت فصاحته وبيانهُ حتى جنب اسماء سور القرآن وآياته الكريمة .

لقد تعامل الشاعر العباسي المتأخر في اكثر قريضه الذي انشده بحضرة الخلفاء والسلطين بالاسلوب الخطابي المباشر فحرك ضمائر الخطاب تحريكا دقيقا ، فالكل يعرف ان الاسلوب الخطابي له مجالات بارعة في التأثير على نفوس المستمعين افرادا كانوا ام جماعات وامل الشاعر المتكسب من ذلك ان تبلغ قصيدته مداها في التعبير عن الغرض الذي يروم الانشاد فيه (٤٦) فمن المعروف ان الاسلوب الخطابي قد يأتي بفعل الامر وقد يأتي بالاستفهام ، او النهي ، او النفي وفيه يتحرك الضمير بتلقائية تحفز المتلقي على التفاعل مع قول الشاعر ، فهذا عرقله الكلبى يبعث للقائد صلاح الدين الايوبي قصيدة يصرح بها جهارا بطلب الدينار ويقول (٤٧) :

قل للصلاح معيني عند اعساري يا الف مولاي اين الالف دينار

كذلك من الملاحظ على هذا النمط من الشعر قلة الاقتباس والتضمين من القرآن الكريم ويبدو لي ان سبب ذلك يعود الى استنكار الجانب الإيماني لأية وسيلة يحاول الانسان فيها اذلال نفسه امام انسان اخر ، فلا تصلح الذلة والخضوع الا لرب العالمين جلّت قدرته وتعالى شأنه ، وليس بعيدا عنا استيضاح هذا الجانب بحديث نبينا (صلى الله عليه وسلم) يوم قال (٤٨) :

(لئن يأخذ احدكم حبلا فيأتي الجبل فيجئ بحزمة من حطب على ظهره فيبيعهها فيستغني بها خير له من ان يسأل الناس اعطوه او منعوه)

فالكسب متاح، بل مطلوب لكل انسان شريطة ان يكون كسبا حلالا من عرق الجبين لا سؤال فيه ولا اذلال للنفس .

والان لعلي في ما تقدم من توضيح على قدر الامكان اكون قد اوقفت القارئ الكريم على ذلك النمط من شعر المديح وهو - المدح التكسبي - ولا يعني ذلك ان الحقبة خالية من مديح صادق العاطفة ، بل على العكس من ذلك فلقد كان له وجوده وبأعلى درجات الصدق التي شهدتها الحقبة وخير مثال على ذلك مدائح البطل طلائع بن رزيك (ت ٥٥٦ هـ) ، والبطل اسامة بن منقذ في شعلة القصيدة الاسلامية آنذاك البطل صلاح الدين الايوبي رحمه الله .

الخاتمة

هذا بحث موجز أسميته - ملامح المجاملة والخداع في قصيدة التكسب والانتفاع في العصر العباسي الثاني تناولت فيه بإيجاز غرض المدح عموما في الشعر العربي منذ الجاهلية وحتى العصر العباسي الثاني ، اتبعت ذلك الحديث عن الشعر التكسبي على اعتباره لونا من ألوان المدح غرضه مادي لا غير ، وقد بينت بدايته حسب علمي زمن المناذرة والغساسنة وتابعت ذلك بصورة مختصرة حتى وصلت الى العصر العباسي الثاني ، وتوسعت اكثر قياسا بما تقدم من عصور ، فوقفت على التكسب زمن العباسيين والفاطميين والايوبيين وبينت كيف ان المادة قد اعمت بصيرة بعض الشعراء اللاهثين وراء الدينار فأوقعتهم على ما اعتقد في منزلق خطير فيه تجاوز على الحدود الدينية وكيف ان ذلك التجاوز لم يلق ردعا من قبل الممدوح إلا بنسبة ضئيلة جدا .

ووقفت خاتمة المطاف على نوع من التكسب المضحك المبكي الذي يستحق هذه المكانة المختلفة مثلما جعلته آخراً في هذا البحث ، فهو ان دل على شيء فإنما يدل على وضاعة في التكسب ، ولكن على اية حال يعد ظاهرة سجلت حضورا في تلك الحقبة ولعلي في ما تقدم من توضيح على قدر الامكان اكون قد اوقفت القارئ الكريم راجيا من العلي القدير السداد والتوفيق .

الهوامش

- ١ - نقد الشعر : ٥٨
- ٢ - المصدر نفسه : ٥٩
- ٣ - ينظر : الامالي في الادب الاسلامي : ١٧٨-١٨٢
- ٤ - ينظر : ظاهرة التكسب واثرها في الشعر العربي ونقده : ٢٢ (لم اعثر على الابيات في ديوان الطرماح تحقيق د. عزة حسن)
- ٥ - الامالي في الادب الاسلامي : ١٨٨
- ٦ - ينظر : نقد الشعر : ٦٢
- ٧ - ينظر : م . ن . ٦٢
- ٨ - ينظر م . ن . ٥٩ - ٨٠ ، العمدة ٢ : ١٢٨
- ٩ - ينظر : ظاهرة التكسب : ١٧-١٨ ، التكسب بالشعر : ١١-١٢
- ١٠ - م . ن : ٢٠
- ١١ - م . ن : ٢١
- ١٢ - ينظر ديوان ابن النبيه المصري : ٨٣-٨٦ وينظر كنز الدرر ٧ : ٦٧
- ١٣ - سير اعلام النبلاء ٢٢ : ١٧٨
- ١٤ - ديوان سبط بن التعاويذي : ١٥٨
- ١٥ - تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الأول : ٢٩٤
- ١٦ - تحرير التحبير : ٣٢٣
- ١٧ - معاهد التنصيص ٣ : ٢٨
- ١٨ - ديوان الابله البغدادي : ٢٦٨ - ٢٧٠
- ١٩ - ديوان الطغرائي : ١٨٢ - ١٨٣
- ٢٠ - ينظر : جريدة القصر - القسم العراقي ٢ : ٧١
- ٢١ - م . ن - القسم العراقي ٢ : ٧١
- ٢٢ - ينظر : المواعظ والاعتبار ١ : ٤٥٦
- ٢٣ - ديوان حيص بيص ٣ : ٢٨
- ٢٤ - ديوان ظافر الحداد : ١٥١
- ٢٥ - ينظر : التكسب بالشعر : ٤١
- ٢٦ - ديوان الارجاني ٣ : ١١٤٩
- ٢٧ - ينظر : الوافي بالوفيات ١٧ : ٦٩٢

- ٢٨- ديوان ابن الخياط : ٢٨٧
- ٢٩- ينظر : التكبسب بالشعر : ٤٦ (البيت غير موجود في ديوان دعبل بن علي ، تح د . ابراهيم الاميوني ط ١ دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٨)
- ٣٠- ديوان الطغرائي : ٣٩٩
- ٣١- ديوان سبط بن التعاويذي : ١٣
- ٣٢- ديوان اسامة بن منقذ : ٢٤٨
- ٣٣- ديوان ابن الخياط : ١٢٧
- ٣٤- ديوان سبط بن التعاويذي : ٢٤
- ٣٥- ديوان عرقلة الكلبي : ٣٠-٣١ وينظر الروضتين ٢ : ٣٩٢ - ٣٩٤ .
- ٣٦- م . ن . ٤٩ - ٥٠ ، وينظر فوات الوفيات ١ :- ٣١٣ .
- ٣٧- التكبسب بالشعر : ٧٨ .
- ٣٨- ديوان ابن عنين : ٥٥ - ٥٨
- ٣٩- ينظر : معجم الأدياء ٩ : ٤٦
- ٤٠- ينظر : الوافي بالوفيات ٢٢ : ٣٩٠
- ٤١ - ديوان ابن قلاقس ١٦٤
- ٤٢ - ينظر التكبسب بالشعر : ٨١ (الابيات غير موجودة في الديوان تحقيق علي جواد الطاهر)
- ٤٣- ديوان ابن عنين : ١٠٦
- ٤٤- ينظر يتيمة الدهر ٣ : ٢٥٦ - ٢٥٨
- ٤٥- شعر السلامي : ٩٣
- ٤٦- ديوان ابن عنين : ٥٥ - ٥٨
- ٤٧ - ينظر البطل في شعر الحروب الصليبية : ٢٤٢
- ٤٨- ديوان عرقلة الكلبي : ٣٠
- ٤٩ - السنن الكبرى ٤ : ١٩٥

مصادر البحث ومراجعته

- الألمالي في الأدب الإسلامي : د. ابتسام مرهون الصفار - بغداد - دار الحكمة ١٩٩١ م
- البطل في شعر الحروب الصليبية : د. عاصم عبد دواح - الطبعة الاولى - بغداد ٢٠١٠ م
- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول : د شوقي ضيف - الطبعة الاولى مصر - ١٩٧٢ م
- تحرير التحبير : ابن ابي الاصبغ المصري - تحقيق محمد حفني شرف - القاهرة - ١٩٦٣م
- التكسب بالشعر : د. جلال الخياط - بيروت ١٩٧٠م
- خريدة القصر وجريدة العصر | القسم العراقي العماد الأصبهاني - تحقيق محمد بهجة الاثري - بغداد ١٩٥٥ - ١٩٧٣م
- ديوان ابن الخياط : برواية تلميذه ابن القسيرانى - تحقيق خليل مردم بك - دمشق ١٩٥٨م
- ديوان ابن عنين - تحقيق خليل مردم بك - دمشق ١٩٤٦م
- ديوان ابن النبيه المصري : تحقيق عمر محمد الاسعد - الطبعة الاولى - دار الفكر ١٩٦٩م
- ديوان ابن قلاص : تحقيق د. سهام الفريح - القاهرة ١٩٨٢م
- ديوان الابله البغدادي : رسالة ماجستير للطالبة سعاد جاسم محمد جامعة الموصل ١٩٨٥م
- ديوان اسامة بن منقذ : تحقيق وتقديم احمد احمد بدوي وحامد عبد المجيد .
- ديوان حيص بيص : تحقيق مكي السيد جاسم ، شاكرا هادي شكر ، دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧٥
- ديوان سبط بن التعاويذي - تحقيق د.س مرجليوث - القاهرة - ١٩٦٣م
- ديوان الطغرائي : تحقيق د. علي جواد الطاهر ، يحيى الجبوري - بغداد ١٩٧٦م
- ديوان ظافر الحداد : تحقيق حسين نصار القاهرة - ١٩٦٩م
- ديوان عرقلة الكلبى : تحقيق احمد الجندي ، دمشق ١٩٧٠
- الروضتين في اخبار الدولتين : ابو شامه المقدسي - القاهرة ١٢٨٨ هـ
- السنن الكبرى : الامام البيهقي تحقيق محمد عبد القادر عطا ، مكة المكرمة ١٩٩٤
- سير اعلام النبلاء : الذهبي تحقيق بشار عواد ، محيي هلال السرحان - بيروت ١٩٨٤م
- شعر السلامي : جمع وتحقيق صبيح رديف ، مطبعة الايمان - بغداد ١٩٧١
- الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد د . عبد الكريم توفيق بغداد ١٩٧٦ م.
- الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي :: د.علي جواد الطاهر بغداد ١٩٥٨ ، ١٩٦١م
- ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده : درويش الجندي مصر - ١٩٦٩م
- العمدة : ابن رشيق القيرواني القاهرة - ١٩٥٥م
- فوات الوفيات : ابن شاكرا الكتبي تحقيق احسان عباس - بيروت - ١٩٧٣ - ١٩٧٤م
- كنز الدرر وجامع الغرر : عبد الله بن ابيك الصفدي تحقيق د. سعيد عبد الفتاح العاشور القاهرة - ١٩٧٢م

- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص : عبد الرحيم العباسي تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر - ١٩٤٧ م
- معجم الأدباء : ياقوت الحموي الطبعة الأخيرة - القاهرة . دت طبعة دار المأمون
المواعظ والاعتبار (الخطط المقرزية) المقرزي بغداد - ١٩٧٠ م مكتبة المثني
- نقد الشعر : قدامه بن جعفر تحقيق كمال مصطفى الطبعة الأولى مصر - ١٩٤٨ م
- الوفاي بالوفيات : صلاح الدين بن ابيك الصفي د. م ١٩٣١ - ١٩٨٣
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر : ابو منصور الثعالبي تحقيق د. مفيد قمحة الطبعة الأولى - بيروت ١٩٨٣

**In the name of God The merciful The compassionate
The elements of flattery and deceit in the poem," AL –
Takasb wa AL – Entifa'a" in the second Abassyian period
٣٣٤ – ٦٥٦ (Hijri).**

The present study depicts a type of praise poetry written by many poets of the late Abassyian period as a kind of flattery for some powerful individuals . Usually , it is noted in such type of poetry the materialistic interest of the poet ; he gives many over – exaggerated traits to the person or individual being described .As a result, the praise poem became unbelievable . However those individuals who were flattered received such praise with satisfaction and pleasure.